بين « أنات حائرة »
و بين « قيس ولبنى »

من دموع الشاعر الجليل الأستاذ عزيز أباظة بك

للأســـتاذ دريني خشبة

تُرى ، هل كانت هذه الزوجة الكريمة الملهِمة تدرى أنها تقترح على زوجها إنشاء رثائها هذا المؤلم الحزين الخالد ، وهى لا تزال على قيد الحياة ، حينما اقترحت عليه نظم « قيس ولبنى ؟ »

ويا ترى ، هل فطن هذا الزوج الكريم ، وقد شرع ينظم « قيس ولبنى » أنه إنما شرع ينظم رثاء أعز الناس عليه ، وهى بعد لا تزال تنبض بحياة حافلة سعيدة ؟

يا للمأساة التى أنتجت لنا كل هذا الأدب ، وكل هذا الشعر!

فوجئت بهدية الأستاذ الكريم على غير سابق معرفة ، ففرحت بها ، لأنها ملأت يدىَّ بأملى المنشود الذى كنت أرسلهما من أجله فى الأدب العربى فلا تفوزان منه إلا بالوشل الذى لا يشفى غلة ، ولا يبل ظمأ ... فلما قرأتها ، عرفت فيها ريح ذلك الفؤاد المحزون الذى تَنَفَّسَ عن أشجانه « بأَنَاته الحائرة » أو هذه الباقة العبقة من زهرات الألم والأسى ، التى نظمها الشاعر تحيية لروح أعز الناس وذكرى ! وجدت فى المسرحية ريح هذا الفؤاد المحزون ، وكنت قد تصفحت « أنات حائرة » ، فلشد ما راعنى أن صدق حدسى ! لقد وقفت فيها على زفرة من ذاك الأنين الموجع الذى وصف به الشاعر فى إحدى مراثيه تلك الليلة الخالدة فى حياة كل زوج ، الليلة الأولى التى تربط بين قلبين ، وتحقق حلمين ، وتستفتح فى تاريخ كل عش هادئ طوبى من السعادة والمحبة والتوفيق ...

لقد أجرى الشاعر على لسان قيس ، فى ليلته السعيدة الأولى ، حينما لم الله شعثه بلبنى ، نغماً من تلك الموسيقا الباكية التى ترددت فى أطرافها أناته الحائرة ، والتى ذرف بها دموعه وروحه ، وجدا على شريكة حياته وحرقة والتياعا ...

اسمع إلى الشاعر الجليل يرثى إلفه فى ليلة ذكرى عُرسه :

يا ليلة جمعتنا بعد طـــول نوى
ذكراك هاجت لنا الأشجان ألوانا
ذكرت ما كان من عرس جلوت به
علىَّ أكرم خلـــق الله إنسانا
بيضاء هيفاء تحكى الصبح مؤتلقا والروض متسقاً والبان ريّانا
بتنا تضىء ظلام الليل نشوتنا وتستثير شجون الليل نجوانا
قالت وقلت ، فلم تفرغ مقالتنا إلى الصباح ولم تفرغ شكاوانا

واسمع إلى قيس يكمل هذا اللحن :

وحولنا الليل يطوى فى غلائله وتحت أعطافه نشوى ونشوانا

فتتم لبنى اللحن قائلة :

نكاد من بهجـة اللقيا ونشوتها
نرى الربى[1] أيكةً والرمل بستانا
ونحسب الكون عش اثنين يجمعنا
والماء صهباء ، والأنسام ألحانا
ونحسب العمر فيضاً من صبا وهوى
والغيب ملآن بالإشراق ريانا[2]

فيشدو قيس :

لم نعتنق والهوى يفرى جوانحنا وكم تعانق روحانا وقلبانا
نقضى حياء ، ونقضى عفة وتقى إن الحياء سياج الحب مذ كانا[3]
ثم اثنينا وما زال الخليل لظى والوجد محتدماً والشوق ظمآنا

وتختم اللحن لبنى وهى قائلة :

فى سبيل الهوى ما ذاب من مُهَج
وأنهلّ من مقل ذاق وقربانا
خضنا الليالىَ نشكوها وننكرها
حتى التقينا ، فقد لذت لنا الآنا[4]

حتى التقينا فقد لذت لنا الآنا ! لله ما أوجع تلك الذكرى !

اسمع إذن إلى بقية اللحن يرسل فيه الشاعر الجليل روحه ودموعه :

يا ليلة شبّت الذكرى بعودتها فى دورة العام ماذا هجت لى الآنا ؟
قد كنت فيما مضى أنساً نطيب به
نفساً ، فأمسيت أوصاباً وأشجانا

---

(١) فى ديوان أنات حائرة « الدنا » مكان « الربى »
(٢) فى الأنات : والغيب مؤتلق الآفاق مزدانا
(٣) ليس هذا البيت فى ديوان الأنات
(٤) البيتان ليسا فى الديوان

أضنيت أسوان ما ترقى مدامعه
وهجت فوق حشايا السهد حيرانا
يبيت يودع سمع الليل عاطفة ضاق النهار بها ستراً وكتمانا
ويرسل الشجو فى سر الدجى حُرقاً
لو الدجى قُدَّ من صخر إذن لانا !

إلى آخر هذه الأنات الحائرة بين الديوان الوفى الخالد ، وبين المسرحية الوفية الخالدة

لقد كنت أقف عند كل شعر يقوله قيس ، فأحس فيه قلباً يحترق وروحاً تتململ من الوجد ، فى دبياجة قوية ، ونفس مرسلة ، لا تتقق كثيراً لمن ينظمون شعراً لا تصله بقلوبهم صلة وليس لأرواحهم بموضوعه شأن ، فلما وقعت على هذا الشعر الذى يقبسه الشاعر من مرائيه ، ليجريه على لسان قيس ولبنى ، عرفت سبب هذه الحرارة التى تشيع فى كلمات قيس ولبنى خاصة فلما قرأت فى خطابه إلى أنه إنما شرع ينظم مسرحيته باقتراح من هذه الزوجة الوفية ، عرفت أن المقادير قد شاءت أن تكون المسرحية كلها أخلد المراثى فى ديوان الأنات الحائرة

ولكن . ما دام الأمر كذلك ، فلماذا آثر الشاعر الجليل أن تنتهى منظومته هذه النهاية السعيدة ، ولماذا لم ينته بها إلى المأساة ، والمأساة أوجع فى القلب ، وأنكأ للنفس ! ولا سيما أن كثرة الرواة على أن قيساً ولبنى لم يجتمعا بعد افتراقهما ؟

وأحسب الإجابة على هذا سهلة هينة ... فالشاعر المحزون رجل مؤمن عامر القلب بالإيمان ... وهو قد نظم المسرحية لتكون رثاء ووفاء ... وهو قد اتخذ قيساً ولبنى رمزين خالدين له ولألفه ... وهو قد كره لهذا السبب أن ينتهى حبهما إلى هذا الفراق الكريه الذى قال به معظم رواة أبى الفرج ، والذى لا لقاء بعده ... حتى فى عليين ... وهو لهذا السبب آثر أن يجمع بينهما فى هذه الحياة الدنيا ... وأظنه ... بل أؤكد أنه رمز بذلك إلى لقاء الدار الآخرة

* * *

وبعد ... فنحن نريد أن نتجه بأمانينا إلى هذا الإيمان الذي يعمر قلب عزيز أباظه بك ... الرجل الذى وفى لشريكته فى الحياة ما لم يف أحد لأحد ... الرجل الذى كان يملك هذه الذخيرة من الشعر والشعور وقوة التعبير ، ثم لا يطمع فى شهرة أدبية ، ولا يحاول منافسة أحد من جبابرة الأدب ، حتى كان الذى قضى الله ، فسعت إليه الشهرة التى تحفى أقدام غيره وهو أزهد الناس فيها ، لأنه إنما كان يبكى لنفسه ، ولم يطلب قط أن يسعده أحد ، أو أن يعده بالإسعاد على ما ألم به . إنما هو حسن حظ الأدب المصرى الحديث الذى أظفره الله بأدمع ذاك القلب الكبير وأناته ، منظومة فى سموط من الألم . أراد الله أن يرسلها الشاعر تفريجاً لهمه ، وتنفيساً عن قلبه ... وإلا فأين كان كل ذلك الأدب وقد بلغ الشاعر الخامسة والأربعين ؟[1]

فنحن إذن نتجه إلى قلب الشاعر العامر بالإيمان ، بأمانينا ، بأمانى الأدب المصرى الحديث ... بهذه الآمال التى رددناها ، ولن نمل من ترديدها ، حتى يعمر شعرنا المصرى الحديث بهذه الثروة الزاخرة التى شهدنا بعض أقباسها فى مجنون ليلى ، وكليوبطره ، وقمبيز ، وكثير عزة ، وأغنية الرياح الأربع ... وأخيراً ... فى قيس ولبنى ... وفيما لا أذكر الآن من روائع شعرائنا المجددين

نتجه إلى قلب الشاعر العامر بالإيمان إذن . راجين أن يسير بالشعر المصرى الحديث فى تلك الناحية الموضوعية التى سار بها فى مسرحيته الخالدة ، والتى سار بها فى روائعه « فى بطحاء مكة » و « على قبر خديجة أم المؤمنين » و « أحد » و « ذكريات »

وليؤد كل منا الدين الذى فى عنقه للوطن واللغة والأدب .

وينبغى ألا تحول آلامنا بيننا وبين واجبنا

دريني خشبة

---

(١) ولد الشاعر بالزقازيق فى ١٣ أغسطس سنة ١٨٩٨ وتعلق بحفظ الشعر منذ أول الصبا ، وكان خاله الذكر المرحوم حافظ بك إبراهيم صديقاً للأسرة الأباظيه ، كثير التردد عليها ، فكان يهدى الشاعر إلى روائع الشعر العربى ويوصيه بحفظها ثم عالج قول الشعر وهو فى السنة الرابعة الابتدائية وثابر على معالجته متأثراً بالشعر القديم ، ثم متأثراً بعد ذلك بشوقى الذى يعتبره فى أوائل القائمة من شعراء العربية وكان شديد الحرص على أن يحتفظ بشعره لنفسه ، وألا يطالع به إلا نخبة من أصدقائه وأقربائه المختارين ، ولئن نشرت له الجرائد بعض القصائد والمقطوعات وهو بعد تلميذ بالمدارس الثانوية . وقد بدأ ينظم قيس ولبنى باقتراح من زوجته ظللها الله برحمته ورضاه — فبدأ نظمها مجاملا ومتسلياً ، ثم ذهب فيها شوطاً بعد شوط ، ثم أخذ نفسه بإتمامها وفى أكتوبر سنة ١٩٤٣ صدر ديوانه الحزين الباكي « أنات حائرة » ، ومما قاله لنا بصدده : « فلقد طالما جاهدت نفسى أن أطويه كدأبي عن الناس ! إنه أدمع قلبي وأنين روحى ، فأى شأن للناس به ! » والديوان يمتاز بقوة أسلوبه ، وقوة روحه ، وقوة حزنه ، وقوة إيمانه ؛ وقد نظم معظمه وهو بين يدى الله بالحجاز ، فكان يمازج فيه بين الذكريات المؤلمة المبكية ، ولا نغالى إذا قررنا أنه من أروع ما فى الشعر العربى من شعر الرثاء